البناء.. وصراع الوجود في عودة إلى سورة الأحزاب.. وصورة كل من المؤمنين والمنافقين

« ١ »

الصورتان المعبرتان اللتان تقفنا عليهما سورة الأحزاب لكل من المنافقين والمؤمنين عندما واجهوا أحزاب الكفر وقد حشدت يوم الخندق من العَدد ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل، ومن العُدة ما يتناسب مع هذا العدد. هاتان الصورتان تنزلت بهما آيتان كريمتان هما قوله تعالى في شأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾. وقوله تباركت أسماؤه في شأن المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾. وقد أشرت إلى ذلك في مناسبة سلفت.

وفي نقلة إلى الواقع المعاصر وما يمكن أن يصنعه المصلحون انتفاعاً ببدهية أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، يتبدّى أن الذي تجدر الإشارة إليه من خلال هذا الواقع الذي تعيشه الأمة ـ وهي تتوثب لمنطلق جديد يعود بها ـ إن شاء الله ـ سيرتها الأولى في القوة الفاعلة والريادة، ويقف أعداؤها من ذلك موقف التربص الماكر حيناً، والعداء السافر تحت سمع الدنيا وبصرها حيناً آخر ـ.

والذي يجدر الإشارة إليه من خلال هذا الواقع، لتكون الجسور موصولة بين معالم الكتاب العزيز التي وجهت إلى بناء الإنسان والمجتمع، وأنشأت أمة القرآن: هو الدقة البالغة لوضع الصورتين، كما دلت عليهما الآيتان الكريمتان في إطار غزوة الأحزاب التي تمثل حلقة من حلقات الصراع بين الإيمان والكفر والحق والباطل، وهو ذلك الصراع الدامي الذي كان يهدف أولَ ما يهدف إلى استئصال شأفة الدعوة

الإسلامية وأهلها، والحيلولة دون عملية البناء الشاملة أن تبلغ مداها، بعد أن شرعت تملأ ساحات الحياة في السياسة والفكر والاجتماع والاقتصاد ووضع الإنسان موضع التكريم على هدي عقيدة التوحيد وشريعة الله المباركة التي أنزلها الله للإنسان، أياً كان هذا الإنسان وفي أي زمان أو مكان وجد. والله تبارك أعلم بما يصلح لعباده في عاجلهم وآجلهم، ويسعدهم في الدنيا، ويضمن لهم الفوز العظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والوضع الدقيق الذي نعنيه، يعتمد على أن الصراع من وجهة النظر السليمة هو صراع على وجود أمة تصوغها رسالة الإسلام في أن تكون أو لا تكون، وإذن فالذين يحملون عبء تحقيق هذه الرسالة على ساحات البناء في الداخل وجهاد الأعداء في الخارج: ما بد من أن يسلم لهم محور التحرك تصوراً وتطبيقاً، وهم يوسعون لمنهج الله أن يأخذ وجوده الحقيقي، فيبني الإنسان والمجتمع والأمة وفق مراميه، وينمي كل واحدة من قدرات هذه الأمة وطاقاتها، ويسيِّرها في قنواتها الطبيعية التي تجعلها عناصر إنتاج وعطاء حضاري سليم.

وكان المحور هو الإيمان: الإيمان الذي يبدو الجهاد في سبيل الله والصبر في مستلزماته: من أوضح الأدلة على صدقه واستنارة القلب بضيائه. فالمنافقون ـ بنفاقهم ـ كانوا أحطَّ من أن يشرفوا وتنالهم كرامة الجهاد الصادق والبذل في سبيل الله، فهم متهالكون قلباً وقالباً، تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ولا يستحيون من النطق بالكلمة الضالة المخرية وهي أن وعد الله ورسوله بالابتلاء والنصر: كان باطلاً من الباطل ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢]. كبرت كلمةً تخرج من أفواههم وساء ما يزرون.

وعلى العكس من ذلك كان المؤمنون الذين لم يزدْهُمْ هول الموقف إلا طمأنينة وثقة بوعد الله ورسوله بالابتلاء والنصر ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

موقف المنافقين كان نقضاً للعهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولّون الأدبار، أما المؤمنون الذين خالط الإيمان بشاشة قلوبهم: فهم مستمرون على العهد والميثاق يستشعرون عظم المسؤولية، وأن الأمر يتجاوز الأفراد إلى مصلحة الجماعة، بل إلى تحقيق الوجود العملي لرسالة الإسلام التي تسعد بها الجزيرة العربية والبشرية كلها من وراء ذلك. وأنت واجدٌ أنه تكريماً لموقف هؤلاء المؤمنين جاء قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

إن امتداد تاريخ أمتنا الإسلامية زماناً ومكاناً ـ في ظل تلك القيم ـ يحمل الأهمية البالغة لتلك البدايات التي جعلت من صدق الإيمان وطهارة النفوس، شرطاً لازماً كافياً لمن تناط بهم عملية الإنجاز العظيم في أنفسهم وعلى الثغر الذي يقومون عليه، وإنشاءِ الواقع النابع من تلك القيم، والنظرِ إلى المستقبل من خلال ذلك.. إن امتداد التاريخ على هذه الشاكلة يجعل من المسلّمات أن البداية السليمة على طريق طويلة يعتريها كثير من الملابسات المستجدة في العالم الإسلامي، وفي العالم كله: تقتضي إعطاء هذا العنصر من عناصر التكوين حظه الأوفى من المنهج والتطبيق، والحظ الأوفى يعني الفسح للمنهج الذي تطرحه عقيدة التوحيد على ساحات العلم والعمل وكل ما يلزم لعمارة الأرض واستثمار طاقات الأمة وخيراتها، لتكون في عزة ومنعة لم تكونا لأسلافها الأمناء، إلا بصدق الإيمان والتصور الصحيح للمنهج الرباني، وجعل المعرفة بريداً لاستشعار المسؤولية والقيام بأعبائها؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان والله ولي الأقوياء الأمناء، يجزيهم بما صبروا ويتقبل عنهم أحسن ما حملوا. وهنيئاً لأحبائه المقربين!.

البُناة.. والمؤمنون.. سورة الأحزاب.. ودلالات أخر

« ٢ »

إن المشقات والمصاعب التي تنتظر أولئك الذين يسعدهم الله بحمل عبء الدعوة، وما يكتنف المسيرة الخيِّرة المرتقبة للأمة من معوِّقات.. كل ذلك يدعو إلى تأكيد ما قلناه قبلاً من ضرورة الدقة في تحليل الموقفين اللذين عرضت لهما سورة الأحزاب عندما واجه المسلمون ـ وهم في قلة من العدد والعدة ـ عشرة آلاف مقاتل أو يزيدون في غزوة الخندق.

والموقفان هما: موقف الهدّامين المنافقين وموقف البُناة المؤمنين؛ فالدقة في تحليلهما ووضع كل منهما موضعه في إطار تلك الغزوة التي تمثل حلقة من أبرز حلقات الصراع بين الحق والباطل، مقروناً ذلك بشراسة أهل الباطل في رحلتهم من مكة إلى المدينة لتحقيق ما يبتغون من القضاء على الإسلام وأهله. لذا كانت الدقة في التحليل: أمراً على غاية الأهمية من حيث التصور، ومن حيث العمل والإفادة من وقائع السيرة والتاريخ؛ ذلك لأن المحور الإيماني وما يثمره كان هو مناط القضية في كل من الموقفين اللذين عرضت صورتيهما الكلمات الهاديات في سورة الأحزاب.

ففي الصورة التي عرضتها آية كريمة لموقف المنافقين ترى أن مرد الأمر إلى قلوب خاوية من الإيمان، ونفوس مقطوعة الصلة بالله عز وجل، ناهيك عن الشح الهالع والجبن الخالع، والرغبة الملحة في الحطام الهابط.. وأي خير يرتجى من أمثال هؤلاء الهدامين؟؟.

وكان مرد الأمر في الصورة الأخرى التي تشرق بما كان عليه المؤمنون البُناة وهم يتوشحون سيف الجهاد الصادق الذي يرتفع بصاحبه إلى مستوى رغبة الشهادة في سبيل الله واليقين بصدق ما وعد الله ورسوله.. كان مرد الأمر في تلك الصورة

المباركة إلى إيمان صادق خالطت بشاشته القلوب، فكانت الطمأنينة في النفوس، وكانت السكينة في القلوب، وكانت الشدة التي حملتها ريح المواجهة أضعف من أن تنال من تلك النفوس وتلك القلوب، بل إن جو المواجهة الذي ينذر بالمعركة التي يمكن أن تلتهم ما تلتهم.. لم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً، ومزيداً من الحرص على طلب الشهادة بتنامي الحافز العظيم للقتال.. وكيف لا وهم يؤمنون بنصر الله وعونه ـ إن هم نصروه ـ إيمانهم بطلوع هذه الشمس وغروبها.

ورافد مكين لا بد منه لهذا الذي نقول: هو أن الدقة في وضع كل من الصورتين موضعهما في إطار المعركة على طريق الصراع الدامي بين المشركين وأعوانهم من اليهود والمنافقين، لا تعني المحاصرة بالحد الزمني للصورتين، بل على العكس من ذلك: إنها تعني ـ والأمة تتحفز إلى التغيير النافع والعمل على إنشاء واقع ذاتي صحيح النسبة إلى أصالة الإسلام ـ ضرورةَ التنبه إلى الارتباط بين الظاهرة وبواعثها في موقف كلٍّ من المسلمين وأعدائهم، ومكانة المحور الإيماني المرتبط بالعمل المثمر المجدي، وبذل المال والنفس عن رضى وطمأنينة في سبيل الله.. وذلك ما يرشح صاحبه لحمل أعباء البناء المنشود، والعطاء الذي يعود بالخير على المجتمع والأمة.

كما تعني ضرورة التنبه إلى الترابط الواضح بين التخاذل والهلع وسوء الأدب الجاحد مع الله ورسوله، وبين النفاق الذي أطبق بظلامه على القلوب، فجعل من أصحابها طاقة معطلة عن البر، بل مؤذية للمجتمع والأمة، لأنها كانت مهيأة دائماً لأن تُظاهر اليهود والمشركين على الأمة ورسالتها الإنسانية الحضارية، وأن تكون أبداً أداة هدم وتخريب تحت ستار التظاهر بالإسلام، والإسلامُ منها براء، وذلك بعض ما توحي به حال المنافقين، وفلتات ألسنتهم عند مواجهة الأحزاب.

هذا: وتنمية الإدراك للترابط الذي نومىء إليه: قضية كبرى تعمل عملها في إزالة الغشاوة عن كثير من الأعين التي يسحرها الزخرف والبريق المصطنع.

وإذا كان الأمر كذلك، من حيث تجاوزُ صورةِ الموقف للحدِّ الزمني الذي وقعت فيه، لأنها مرتبطة بقيمة كانت هي السبب في الصورة والباعث على الموقف.. إذا كان الأمر كذلك: فما أشد احتياج الأمة ــ وهي تحاول أيضاً ترجمةَ تطلعاتها وآمالها المستقبلية إلى واقع ملموس كما يريد المخلصون من أبنائها ــ .. ما أشد احتياجها إلى تنقية الصفوف من الدخيل، والبعد عن الاكتفاء بالتكديس، بُعداً يُستبدل معه الكم المتراكم على غير هدى: بالكيف والنوع.

أضف إلى ذلك ما تمسُّ إليه الحاجة من تحرير البداية الأولى على تلك الطريق الشاقة المتشعبة المسالك والابتلاءات، في ضوء العقيدة الصحيحة التي شاء الله أن تكون قاعدة وجود هذه الأمة، وناظم حياتها الذي لا يعول، لأنها تضيء القلوب بالإيمان، وتكرِّم الإنسان، وتدعو إلى العلم والعمل، واستثمار خيرات الكون المذلّل المسخّر للإنسان في مرضاة الله تعالى، وبذلِ كل ما من شأنه إعداد القوة التي تهب الأمة وجودها الذاتي الأصيل، وترتفع بها إلى المستوى اللائق بمواجهة ما يبيَّتُ لها في الظلام من مؤامرات مدروسة تشغل كثيراً من الميادين.

ولقد وقفنا المعلم القرآني في سورة الأحزاب ــ كما سبق ــ على ما خوطب به المصطفى عليه الصلاة والسلام ــ وهو يصارع العقبات في الداخل والخارج كيما يستقيم أمر القضاء على رواسب الجاهلية وإحكام البناء على الوجه الذي ينبغي ــ .. وقفنا على ما خوطب به صلوات الله وسلامه عليه بأن لا يأذن للمنافقين بالخروج معه إلى القتال لو استأذنوه، بعد أن تخلفوا عن القتال فرحين بمقعدهم خلافه، يوم توجه مع الصحابة في الحر اللاهب إلى تبوك؛ إذ دل صنيعهم على خراب النفوس، والمرض المستعصي في القلوب، وذلك ــ والله أعلم ــ كيما يكون الرجال الذين يناط بهم العبء وتلقى على عواتقهم رسالة التغيير إلى ما هو الأفضل في ميزان الإسلام ــ على كفاية إيمانية تباعد بينهم وبين التخلخل والتعويق.

أما الكفايات الأخرى: فتبنى على تلكم القاعدة الإيمانية، لأنه إذا اختل أمر العقيدة: كان شأن أصحاب الكفايات شأن أولئك المنافقين لا يجدي أهل الإيمان فتيلاً، بل إن قابلية الأذى والإضرار بالأمة قائمة عندهم، موجودة لديهم، لأنهم فاقدون لرابطة الانتماء الحقيقية التي لا رابطة أقوى منها، مُسْلِمو أنفسِهم للهوى والشيطان.

وكم نكون موضوعيين مخلصين للحقيقة التي نتحرك تحت رايتها، حين لا نخلط بين الحرص على العقيدة ركيزة أساسية للبناء، وبين عدم التخصص والقدرة على الإنتاج المثمر؛ ذلك بأن الحرص على العقيدة لا يعني التهاون بالإعداد المتكامل، بل العكس هو الصحيح: لأن العقيدة نفسها تملي ذلك وتدعو إليه، ومؤيدات هذه الحقيقة القوليةُ والفعلية تكاد تفر من الحصر.

كما لا يصح أن تنسينا بعض الكفايات موقعَ العقيدة من البناء، بما يحمل صاحبها من الأمانة، وعميق الحوافز وصدق الانتماء، والله غالب على أمره ولكن كثيراً من الناس عن هذا! غافلون!!.

البنية الثقافية.. ودرس من سورة المائدة

« ١ »

ما تقفنا عليه آيات سورة القصص في شأن من أسلموا من أهل الكتاب بعد أن قدموا من الحبشة، كما تدل بعض الروايات، وهي مما تنزَّل في العهد المكي ـ، والفئة القليلة المؤمنة تخطو أولى خطواتها على طريق البناء بدءاً من ساحة الصراع بين التوحيد وبين الشرك والجاهلية ـ ما وقفتنا عليه تلك الآيات وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]. من مؤشرات لها ما لها من آثار طيبة مباركة على البنية الثقافية، يأخذ بيدنا إلى العهد المدني حيث تطالعنا آيات من سورة المائدة بقضية، بينها وبين آيات سورة القصص المكية نوعٌ من صلة القربى ـ كما أسلفنا من قبل ـ.

ونجد من خلال ذلك، ما يدل على أن منهج البناء ـ ومنه ما يتعلق بالكيان الثقافي والفكري، أخذ حظه من العناية في كلام الله تبارك وتعالى، خالقِ الإنسان والكون، الحكيمِ في تدبيره، العليم بما يصلح عباده.

وأنت ترى في الآيات المباركات من سورة القصص إعلاماً من الله عباده بما كان من هؤلاء الذين تحوّلوا شطر رسالة الإسلام وآمنوا بالقرآن.

وها نحن أولاء نقرأ في سورة المائدة ما يخبر الله تعالى به عن الذين بلغ من صدق إيمانهم بدين الإسلام ورقة قلوبهم: أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من كلام الله والحكمة، ترى أن أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق لدى الفريق الآخر.

ذلكم قوله جل وعلا: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾.

أرأيت إلى هذا الوضوح وإعطاء كل ذي حق حقَّه دون وكْسٍ ولا شَطَط. ثم ألا تَعْجب ممن يتوهم أو يظن أن هؤلاء الذين يعرض القرآن موقفهم الإيماني بهذا الوضوح الجازم، هم على غير دين الإسلام، مع أن الذي تعطيه الآيات بصورة يقينية تقطع أيَّ احتمال أن القوم قد شرح الله صدورهم للإسلام، وآمنوا بالقرآن عند سماعه، عن معرفة ووعي، إيماناً لا يتزعزع، وتذوقوا ـ صادقين ـ حلاوة هذا الإيمان، وبلغ من خشوعهم أن بكوا أشد البكاء حتى فاضت أعينهم من الدمع؛ ولم يكن ذلك من عاطفة عابرة، ولكن بما عرفوا من أحقية هذا الكتاب بأنه من عند الله، وأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه صادق في دعوى الرسالة.

ولا يرتاب الفارُّون إلى الله السالكون إليه جل شأنه، أن الدمعة الخاشعة في هذا المجال: عنوان رقة القلب ووَجَله وصفائه، وأنه قد استضاء بهذا النور العظيم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾[الأنفال: ٢]. وما أعظم ما قررته الكلمات المعجزات من الترابط بين خشوع القلب وبين ما عرفوا من الحق ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[المائدة: ٨٣].

إن الأمانة في تربية أجيال الأمة وتكوينها الثقافي، تقتضي أن يُتَّخذَ من هذا الذي يهدي إليه المعلم القرآني في عرض هذه القضيَّة ـ كما هي ـ في كلّياتها وجزئياتها، وأن هؤلاء القوم ـ ومنهم قسيسون ورهبان ـ قد آمنوا عن معرفة

ووعي، وأنهم تأثروا التأثر البالغ بالقرآن فبدا أنهم قد توافر لهم خشوع القلب ـ، حتى بكوا أشد البكاء عند سماع القرآن ـ واستثارةُ العقل وقناعته بالدليل، إذ كان تأثرهم لما عرفوا من الحق.. أن يُتَّخذَ من ذلك نبراس يهتدي بنوره من يحملون أمانة التثقيف والتربية والإعداد بشتى صنوفه وألوانه، ضمن ما يجدُّ من تطوُّر الوسائل والتحديات!!.

والحق أن هنالك قضيتين لا بد من وضعهما في الحسبان:

أما أولاهما : فهي أن إبراز ذلك في القرآن الكريم، يزيد من يقين المؤمن بأنه على الحق ـ والحمد لله ـ وأن المعرفة إذا اقترن بها التجرد في طلب الحقيقة، وصلت بصاحبها إلى شاطىء السلامة بإذن الله. ومن جرى الحديث عنهم أنموذج واضح كلَّ الوضوح لذلك.

وأما الثانية: فهي أن ما يجب أن نتعلمه من هذه الآيات: هو مما يغني البنية الثقافية وينمي فاعليتها في معركة الصراع بين الحق والباطل، كما يريدها الإسلام، وهي بنية إذا توافرت لها السلامة على الوجه الذي ينبغي، بعيداً عن الزغل، واستبطان المساءة. كانت لها الانعكاسات الطيبة على الجماعة والمجتمع بكل ميادينه وألوان النشاط فيه، بل على الأمة صاحبة الرسالة جمعاء.

ذلك لأن الثقافة، تحمل ما تحمل من الفاعلية والتأثير في الفكر والتصور والسلوك..

ومما يجب أن نتعلمه من الآيات على هذه الساحة: ما ينبغي من تعميق الوعي في نشدان الحق وحسن استخدام وسائل المعرفة ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ انظر إلى هذا التحديد!! إنه الحق، وليس وراء الحق إلا الباطل.. وليس بعد الهدى إلا الضلال! وليس بعد الهدى إلا الضلال!.

وأحسب أن التكامل بين المعرفة وصلاح النفوس وانعكاس ذلك على السلوك: واضح في قوله تعالى على لسانهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ إذن هناك صلة بين التزود من المعرفة، وبين العمل على تزكية

النفوس وصلاحها ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وذلك ما يبعث في النفس الاعتزاز بالإيمان وصدق اللجوء إلى الله، بل هذا ما يجب أن يكون لبنة مضيئة في الكيان الثقافي، والله تعالى لا يضيع عنده مثقال ذرة وأنت تقع من خلال ذلك على درس عظيم في ارتباط الجزاء بالعمل﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أجيال البناء.. ومؤشرات في سورة السجدة
«٢»

كلما عاود المرء النظر في كتاب الله ـ وهو الكتاب المعجز ـ ازداد يقيناً على يقين بأن الكلام الذي انتظمه، هو كلام الخالق الحكيم، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وكلما عاود النظر في آية من آيه أو آيات، أو سورة أو سور: ازداد يقيناً على يقين أيضاً، بأن ما تهدي إليه معالمه الخيِّرة في كلماته النورانية، هو الحق الذي لا مرية فيه، والطريق الأقوم الذي لا يخضع للتجربة التي تحتمل الخطأ والصواب.

كيف لا والذي أنزله هدىً ورحمة، هو الذي خلق الخلق، وأبدع الكائنات، وأقام العلاقة بين الإنسان والكون والحياة على سُنَنٍ لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، وهو سبحانه أعلم بما يُصلح عباده، وما ينبغي أن يكون عليه أمر الدنيا والآخرة.

وهذا بعض ما يفترق به منهج المخلوق من منهج الخالق إذ إن ما يصدر عن عباد الله المخلوقين الضعفاء، لا يستوي هو وما يصدر عن رب العباد الخالق القادر الحكيم.

أقول هذا وأنا أنظر في إحدى السور المكية سورة «السجدة» أستضيء بنورها ويقع ناظري فيها على تبكيت الكفار، في مشهد يكونون عليه يوم القيامة وهم ناكسو رؤوسهم يتمنون لو يعودون إلى الدنيا ليؤمنوا على زعمهم بما كفروا به من قبل، يوم كانوا في دار العمل.

كما يقعان على ما يؤذن بقصر الإيمان الصادق بآيات الله على أولئك المؤمنين على إحكام البناء، الذين إذا ذكِّروا بتلك الآيات، خرُّوا سجَّداً وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون.

يقع منهم ذلك وهم على حالٍ من اليقظة في تُطلُّعٍ إلى كل ما فيه مرضاة الله، والخشوعُ بين يديه، ينضم إلى ذلك أنهم ينفقون مما رزقهم الله. وهذا يُشْعر بأن صلاحهم لا يقتصر على ذواتهم، ولكن يتعدّى إلى المجتمع إسهاماً في الخير، وتعاوناً على ما فيه قوة الجماعة وسلامة كيانها؛ ذلكم قول الله تباركت أسماؤه في شأن الكافرين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وفي شأن أهل الإيمان يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

والحق أن القضية التي تستوقف الناظر المتدبر في تاريخ تلك الحقبة، أيام العهد المكي: هي طرح صفات للمؤمنين المؤتمنين مع البناء الأمثل: تميّز سلوكهم، ومنها الإنفاق مما رزقهم الله؛ إذ إن الإنفاق على الشكل المثنيّ عليهم فيه ــ وهو مختلف كليّاً عن كثير من ألوان الإنفاق في الجاهلية ــ يعني ــ فيما يعني ــ حسّاً جماعياً نابعاً من العقيدة، يحفزهم إلى المشاركة في حمل العبء ــ ابتغاء رضوان الله ــ على ساحة التكامل والتعاون المجدي دون منٍّ ولا أذى، والإسهام بشكل تلقائي، في تقوية البنيتين الاجتماعية والاقتصادية.

وهنا ــ في الآيات الكريمات ــ جُعل الإيمان الصادق مقصوراً بكماله، على من يقدّمون البرهان على وجوده؛ والبرهان: هو هذه الصفات التي منها الإنفاق ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وما يزال مُجْدياً استذكار أن هذه الصفة، قد جرى ذكرها ــ ثناءً على أصحابها ــ في غير ما موطنٍ من الآيات المكية ــ كما سلف من قبل ــ.

ولعل في هذا: إشعاراً للمؤمنين ـ على قلة عددهم وأن قياد المجتمع ليس بأيديهم ـ أن دعوتهم التي ينالهم الأذى في سبيل نصرتها: هي دعوة للحياة بكل ميادينها بدءاً من إحياء القلوب والنفوس بالكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي إن طريق البناء الطويل الذي بدأت خطواته الأولى في مكة المكرمة ـ حيث أشرق نور الدعوة ـ إنما يصبر على تبعاته في كل ميدان، وعلى كل ثغر، أولئك الذين يسلم لهم ـ مع العلم وكفاية التخطيط والعمل ـ حسن الصلة بالخالق تبارك وتعالى؛ الأمر الذي ينمِّي الحوافز، ويضمن قابلية الاستمرار، طمعاً برضوان الله تعالى وحسن العاقبة يوم الدين؛ فلقد كشفت الآيات التي حولها ندندن ـ بعد ذكر الصفات التي يتحلى بها أولئك الذين رزقوا صدق الإيمان ـ أن لهم من إكرام الله في جنات الخلد ما لا يحيط به علم البشر المحدود ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ولكم يكون الرواد الأمناء على التهيج لأجيال البناء: موضوعيين حقاً، حين يعملون على أن يكون من الأهداف الكبرى، إعداد الإنسان إعداداً متكاملاً، يحسُّ معه الفرد ذكراً كان أو أنثى ـ ومن ورائه الجماعة ـ بأنه حين يقوم بعمارة الأرض، والإسهام في تحصيل القوة الذاتية للأمة، يعبد الله تعالى، ويترجم ـ في طلب لمرضاة الله ـ منهج الحياة الذي تطرحه العقيدة، إلى وجود عملي في دنيا الواقع، صنيع الأسلاف الذين فهموا الإسلام هذا الفهم، فشادوا تلك الحضارة الإنسانية المؤمنة، حضارة الإسلام.

البناء في إطار التكامل.. وجزاء العمل في سورة السجدة «٣»

كان عظيماً جداً ما أعطى القرآن من التصنيف العملي لصنيع الكافرين وصنيع المؤمنين، فيما رأينا من آيات سورة السجدة ـ كما سبق بيانه ـ بدءاً من الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا...﴾الآيات.

وقد ترتب على ذلك، تقرير أن ما لقيه الكفرة المجرمون ـ من نسيان الله لهم وتعذيبهم في الآخرة ـ إنما كان بسبب ما كانوا يعملون.

فبعد الإزراء بصنيعهم جزاءَ كفرهم باليوم الآخر مع قيام الدليل عليه، وعرضِ مشهدهم يوم القيامة وهم منكسو الرؤوس، يدعون الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وبيان أن الأمور بيد الله سبحانه جاء قول الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي بسبب ما كنتم تعملون، مما يدل على أن الكفر الذي كانوا يتمرغون في أفعاله في الدنيا، هو في الحقيقة عمل، ولكنه عمل سوء وهدم لأنفسهم وللمجتمع.

أما عن المؤمنين: فقد أثنى عليهم رب العزة، ذاكراً من صفاتهم: صدقَ تذكُّرهم، وعميقَ تأثرهم بآيات الله إذا ذكّروا بها، وما يطبع سلوكهم من علو الهمة في طاعة الله، حتى إنهم ليجفون المضاجع ـ والناس نيام ـ يتخشَّعون قياماً بين يدي ربهم ويدعونه خوفاً من عقابه وطمعاً في رحمته، وفي الوقت نفسه، لا يبخلون بالإنفاق مما رزقهم الله؛ إذ تمتد آثار سلوكهم، إلى نفع الآخرين؛ لما أن إمداد المجتمع بما ينمي طاقاته، ويقيم أوده الاقتصادي؛ ودفعَ غائلة الفقر والعوز عن إخوانهم، هو

عبادة مرغّبٌ فيها شديد الترغيب، مثوب عليها في دين الإسلام: تنضمُّ إلى ما يقومون به من عبادات توقيفية أو غير توقيفية أخر ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد ذلك كله: نجد في الآية التالية البشارة العظيمة بما هم صائرون إليه من حسن العاقبة وجميل المثوبة في الآخرة، فإن أحداً لا يعلم ما اختبىء لهم مما تقرُّ به أعينهم، وتطمئن به نفوسهم.

وكُشف النقاب في ختام الآية أن ما نالهم من الخير كان جزاء بما كانوا يعملون، وفي ذلك ما فيه من تقرير العدل الإلهي المطلق، وأن الله جلّ شأنه لا يضيع عنده مثقال ذرة من عمل، ناهيك عما تحمله هذه البشريات من الترغيب الشديد في سلوك مسلكهم الطيب النافع في الدنيا والآخرة. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي جزاءً بسبب ما كانوا يعملون.

هكذا أعطي السلوك عند كل من الفريقين صفة العمل، وترتب الجزاء على ذلك العمل؛ هنا نرى ما نرى في بشارة أولئك البررة من المؤمنين الصادقين الذين يمتد نفعهم إلى الآخرين ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ومن قبلُ رأينا في وعيد أولئك الكفرة الجاحدين وقوع اليوم الآخر: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

والواقع أن مسؤولية البناء لا تفارق المسلم، لأن المسلم متعبَّدٌ بعمارة الأرض والإفادة مما سخر الله له في هذا الكون العريض لبناء القدرة الذاتية للأمة.. هذه المسؤولية إنما يقدرها حق قدرها، ويعمل على أداء حقها؛ عبوديةً لله تعالى: أولئك الذين يَعُون حقيقة الإسلام، ويسارعون إلى كل ما فيه مرضاةُ الله عز وجل؛ علماً وعملاً وسلوكاً وفي ذلك ما يغني المجتمع ـ في شتى النواحي ـ ويضمن نموَّ قدرته العلمية والاجتماعية والاقتصادية، وما إلى ذلك، ناهيك عما يضمن بناء القوة التي ترهب عدوَّ الله وعدوَّ أمة الإسلام، والتي يراد منها: حماية الحق، ودفع الظلم، ونشر دعوة الخير في العالمين.

وهذا ما يجعلنا نعاود ـ بكثير من الثقة واليقين ـ تأكيد أن الدلالة العظيمة التي ينطوي عليها وصف المؤمنين الصادقين بأنهم ـ بجانب الفضائل التي يوصفون بها ـ ينفقون مما رزقهم الله: هي دلالة على ما يمكن أن يصنعه الجمع بين العقيدة والسلوك القويم في النفس الإنسانية؛ بما يحدث من تسيير الطاقات في قنواتها الطبيعية، ووضع الأمور مواضعها؛ وهي دلالة بالغة الأهمية تأخذ مكانها الدقيق المناسب في نسيج التكامل الذي لا يعوزه الاهتمام بالأولويات، وتصنيفها بإحكام، فيما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون تصوّراً وتطبيقاً عملياً في دنيا الواقع.

وقد لا نعني التكامل ـ على إطلاقه وبأبعاده جميعاً ـ فذاك يؤخذ من مجموع النصوص هنا وهناك، وما أوفر وأوضح دلالاتها!!.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الآيات وأمثالها ـ بمؤشراتها المبكرة في العهد المكي، حيث المصاعب والأذى، ومحاولة الفتنة عن الدين في مجتمع لا حول فيه للمسلمين على الصعيد التنفيذي ولا طول ـ كما ترتفع بالمؤمنين إلى مستوى الفاعلية والتأثير في صنع المنهج وتنفيذه، والتكامل الدقيق الذي يمكِّن ـ بعون الله ـ من دفع عجلة البناء والإنماء في إفادة من التطور العلمي وآثار هذا التطور، فهي ـ أعني تلك الآيات وأمثالها ـ حجة على كل أولئك الذين يفهمون الإسلام على هواهم، وينظرون في عقيدته وشريعته وتاريخه بعقول الآخرين.

مع أن الأدلة من النصوص، ومن الواقع التاريخي، والتطبيق العملي ـ مع وجود بعض الصفات التي لا يبرأ منها تاريخ وإن كانت في تاريخنا لا تعد شيئاً أمام ما جرى عند الآخرين ـ .. مع أن هذه الأدلة واضحةٌ وضوح الشمس في رابعة النهار، على أن هذا الإسلام دعوة الحياة بأوسع مفهوم؛ فهي تبني الحياة على نور من الله، وتسلك بالإنسان سبيل كرامته وحريته. وترتفع به إلى ما يسعد في الدنيا ويوم يقف الناس لرب العالمين.

ولكن أين التجرد في الحكم حتى من بعض أبناء جلدتنا هداهم الله؟! ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾**﴾ [الرعد: ١٩].

عمارة الأرض.. والآفاق الحضارية
البناة والتأسي.. وسورة السجدة
« ٤ »

بمقدار ما تبدو عملية البناء التي اضطلع المسلمون بحمل أعبائها ضخمة متسعة الأرجاء، متعددة الميادين: كانت العناية واضحة في إعداد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وتنمية الحوافز النابعة من العقيدة عنده، ليكون على المستوى المطلوب؛ وقوفاً عند حدود الله تعالى فيما تعبَّده به من التفكر والتدبر، والإفادة مما سخَّر للإنسان من الكون براً وبحراً وجواً وما أودع في هذا الكون من خيرات وثروات، وعناصر لها وزنها العظيم في ميادين العلم والبناء الحضاري، وحقول التجارب والإنجاز وأثرها الفعَّال في تطوير طرائق المعرفة والإفادة من التسخير.

ومن حكمة الله تعالى: أن المؤشرات لرحلة البناء الطويلة التي تتسم بسلامة المنطلقات، ووضوح الغاية، كانت مبكرة منذ أوائل العهد المكي، كما دلت على ذلك آيات عديدة أسعدنا اصطحاب زمرة كريمة منها والاستنارة بهداها في بعض ما سبق من القول.

ومع آيات كريمات من سورة السجدة ـ وهي إحدى السور المكية ـ كانت لنا وقفة أمام الأهمية التي يحملها لون من التكامل في الصفات التي تطبع سلوك المؤمنين الصادقين بإيمانهم؛ إذ إن هذا التكامل يعني ـ فيما يعني ـ أن المؤمن، مطلوبٌ منه أن يحقِّق عبودية الله في الأرض، لا في نفسه ـ فحسب ـ طاعةً وخضوعاً بين يدي الله عز وجل، ولكن فيما وراء ذلك أيضاً؛ حيث تمتد دوائر العبادة إلى الإنفاق مما رزقه الله من الحلال الطيب، عن رضىً وطيب نفس.

وفي ذلك ما فيه من إسهام في تكوين بنية سليمة للجماعة على طريق المجتمع الأمثل المنشود، ورفع قواعد الحضارة المثلى وروح التعاون والحسّ الجماعي بين أولئك الإخوة، الذين تلاقت قلوبهم على كلمة الله، وعقدوا الخناصر على أن يكونوا أوفياء للعقيدة التي شاء الله أن تكون منهج حياة لا يغادر ميداناً من الميادين، إلا أشاع فيه الحياة.

والآيات المشار إليها هي قول الله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ولكن ما كان لنا أن نلقي عصا التسيار، بعد تلك العجالة من القول، قبل أن ننظر في بعض ما ورد في السنة المطهرة مما له صلة بهذه الآيات، ويعطي مزيداً من وضوح الرؤية في شأن صفات المؤمنين الذين يتحركون في ميادين البناء.

فعند تفسير قوله تعالى في شأن أولئك البررة الذين ينطق سلوكهم وصالح عملهم بصدق إيمانهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ يورد المفسرون ما روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**عجب ربُنا من رجلين: رجل ثار من وطائه ولحافه، من بين حِبه وأهله إلى صلاته، رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي، ورجلٍ غزا في سبيل الله تعالى، فانهزموا فعلمَ ما عليه من الفرار وما له في الرجوع، فرجع حتى أُهريق دمُه رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي، فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي، رجع رغبةً فيما عندي ورهبةً مما عندي، حتى أُهريق دمُه**» وهكذا رواه أبو داود في الجهاد.

وواضح أن هذه الكلمات النورانية قالها رسول الله بعد فرض الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام كما سنرى قريباً إن شاء الله.

ولئن كان رسول الله ﷺ ـ كما تدل أحاديثه القولية والفعلية ـ قد حرص على التكامل في بناء الفرد المسلم الذي يخوض به معركة البناء.. إن الطابع العملي في سيرته ﷺ حجة قائمة على أمته في أن تتخذ من هديه الذي هو بيان الكتاب العزيز، نبراساً يضيء المسالك ويعين في مسيرة التغيير، فرسول الله ﷺ وهو المبلغ عن ربه ما أراد ـ كان يقول ما يقول ويفعل ما يفعل ويقرّ ما يقرّ، وهو يمارس بكلتا يديه عملية البناء، ولا يني ينمي الطاقات والفاعليات حتى أرسى القواعد وأحكم الأسس، فهل تتدبَّر الأمة أمرها، وتترجم العواطف إلى واقع عملي يعيد لها بالكتاب والسنة سيرتها الأولى؟؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

سورة السجدة... والبناء وشاهد من السنة

قادنا النظر في بعض آيات سورة السجدة وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ إلى النظر في بعض ما جاء عن النبي ﷺ ـ المبيِّن عن الله عز وجل ـ مما هو لصيق بدلالة الآية، مؤكد أهمية ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من تكامل في الصفات التي تطبع السلوك والمعاناة، كفاء الواجبات التي يفترض أن يضطلع بها في ميادين البناء الحضاري السليم.

وكان مما رأينا من ذلك ـ فيما سبق ـ ما روى أحمد وأبو داود من قوله ﷺ: **«عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطائه ولحافه من حِبِّه وأهله إلى صلاته، رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله تعالى، فانهزموا فعلم ما عليه من الفرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أُهريق دمه رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي؛ فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي، رجع رغبةً فيما عندي ورهبةً مما عندي، حتى أُهريق دمهُ».**

وهذا الحديث الذي نطق به رسول الله ﷺ بعد مشروعية الجهاد، يدل بادىء ذي بدء على تعظيم شأن الصلة بالله تعالى، وفضل هذا الرجل الذي ثار من وطائه ولحافه، من حِبه وأهله إلى صلاته في جوف الليل، رغبة فيما عند الله وخوفاً مما عنده؛ إنه واحد من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

كما يدل الحديث أيضاً على مكانة الجهاد في الإسلام، وفضل المجاهدين؛ فالله تعالى يثني على رجل غزا في سبيل الله تعالى، ورجع إلى مكانه من الصف، فلم ينهزم مع من انهزموا، وظل يقاتل حتى أهريق دمه رغبة فيما عند الله وما أعد للشهداء من العطاء، ورهبة من العقاب الذي يحلُّ بمن يفرُّ من الزحف. وهذا دليل صدق الإيمان.

وذِكرُ هذين المؤمنين بالثناء، يدل على أن الذي أراده رسول الله ﷺ من وراء ذلك ــ والله أعلم ــ هو الترغيب الشديد بصنيع من تتجافى جنوبهم من المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، وصنيع ذاك المجاهد الذي ثبت في المعركة لا يبالي، أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، حتى أهريق دمه في سبيل الله.

ومن وراء ذلك: يبدو أمر التكامل واضحاً؛ فالمؤمن قوّامٌ لليل خاشع بين يدي مولاه، ضارع إليه يستمدّ منه العون والقدرة على تحمل التبعات، ويسأله النجاة يوم الدين. مجاهدٌ في سبيل الله؛ فإما النصر وإما الشهادة وكذلك كان أصحاب الرسول ﷺ؛ وذلك مما أقدرهم ــ والله أعلم ــ بعد أن انتصروا في ميدان النفس وأفلحوا في تزكيتها ــ على تحقيق ما أنجزوا من التعفية على آثار الجاهلية، والانتصار في مواجهة التحديات التي لم تقتصر على ميدان القتال، بل كانت شديدة الضراوة في عدد آخر من الميادين.

على أن الحديث يشير ــ كما يبدو ــ إلى نوع من الوجود العملي يصنعه تكامل العمل والحركة والسلوك بين المؤمنين؛ ولعل هذا يفسّر ما قيل عن أصحاب رسول الله ﷺ ــ وحق ما قيل ــ بأنهم «**رهبان في الليل أسود في النهار**».

ونخطو من السنة المطهرة في بيان الكتاب الكريم خطوة أخرى، لنرى ما روى الإمام أحمد بسنده إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «**لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسّره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت**» ، ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنّة والصدقة تطفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل**» ثم قرأ **﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾** ثم قال: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده، وذروة**

سَنامه؟» فقلت: بلى يا رسول الله، فقال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سَنامه الجهاد في سبيل الله**» ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه ثم قال: «**كفَّ عليك هذا**»، فقلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**» ورواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وبعد: فأحسَبُ أن هذا التكامل الذي طرحه الرسول ﷺ حين أتى على أركان الإسلام وبيّن بجلاء أهمية الصدقة ومنزلة الصلاة والجهاد من الدين، بعد أن قرَّر أن رأس الأمر الإسلام، حتى وصل إلى عِظم أهمية الصمت إلا عن خير...

أحسب أن هذا التكامل الذي ترجمه المسلمون إلى واقع عملي في حياتهم تصوراً وتطبيقاً: يلقي الأضواء على ما تحقق من الفتوح والتأهيل الحضاري في حِقبة تبدو كأنها من الخوارق.

والمهم أن توظف هذه الحقائق في دنيا الواقع ـ وحال المسلمين وما يعانونه من أنفسهم ومن أعدائهم هي الحال - ضماناً لسلامة المنطلق، واتساع الخُطى على طريق اليقظة والتغيير!!.